بناء ، قد انكسر . وسوف يتقوض شيء ما في لحظة ما ، وكان يتعين علي أن أترقب ذلك دون ايقافه — لانني لا اريد — ودون الاسراع بحدوثه — لانني لا استطيع .

— ٧ —

وصلت الى مكتبي في مركز توزيع الاعاشة في وكالة الغوث ، كنت قد تأخرت ، ولاحظت ذلك على الوجوه الجامدة لزملائي الذين كانوا بالانتظار . بدأت رائحة غبار الفول ورائحة السمن والحليب المجفف تختلط وسط بحيرة الصمت التي اعيش فيها .

جلست ، ونظرت الى طاولتي . ثمة شيء قد تغير في داخلي . كان احد الموظفين يتحدث الي ، وكنت اشعر بذلك ، الا انني اصطنعت عدم الانتباه . احيانا يكون الصمم درعا في وجه التفاهة .

قلت لنفسي : « الله الله يا عبد العاطي ! سقا الله ايام الطيرة .. » ثم وجدت انه لا سبب يمنعني من رفع صوتي ، فذلك طراز فريد من الحوار ، خصوصا عندما يكون المرء مثلي الان ، غير مكترث بما سيقوله الاخرون .

قلت ، غير متجه الى احد على وجه التعيين : « ذهبت امس الى قبر الولي ، وقلت له : يا سيدنا الولي اريد ان ترد لي سمعي ، فانا اطرش .. اتعرفون ماذا قال ؟ » وانتظرت قليلا ، لا شك ان واحدا منهم سأل : « ماذا قال ؟ » فمضيت ! « لم اسمع ما قال . فانا اطرش ! ها ها ها ! » .

فتحت الدروج واخرجت هذه القوائم الطويلة من الاسماء التي علكتها اصابعي دون صوت شهرا وراء شهر ، وكانت الاسماء متشابهة ، تصطف مثلما تقف باصات الحكومة في الكراج . احيانا نشطب اسما ونقول : « مات . يا حرام . في السماء لا يوزعون اعاشة ! » . وكل يوم نسجل اسماء جديدة لاطفال يولدون ، ونقول : « بزر جديد ، اللاجئون الذين اضاعوا التراب يحرثون ويزرعون الفراش ! » وهذا الصف الطويل من البشر ، واقف مثل طريق مسفلت متعرج يمتد من عام ٤٨ الى عام ١٩٦٧ ، ليس فيه ثغرة واحدة . مثل الطرق الصحراوية في دول النفط ، كلما انفتحت فيها حفرة جاؤوا بالزفت ورقعوها . كلما سقط واحد من الصف ، ميتا من السل او فقر الدم او القهر او الشيخوخة او الهجرة او السجن جاؤوا بولد ولصقوه محله .

نظرت الى الموظفين ، الذين شرعوا ينصرفون الى عملهم ، وقلت : « اللاجئون مثل شارع طويل . طوله عشرون سنة .. ولكن هل تعرفون من الذي يمشي فوق هذا الطريق ؟ » نظروا الي ، وقال احدهم شيئا فضحكوا ، وعدت اقول : « تمشي سيارات وباصات . كادلاك وفولكسفاكن . بسكليتات وكنادر ومداحل ، صنادل وحوافر ، جنازير دبابات وكلاب .. خصوصا يمشي على هذا الشارع الاولياء الصالحون . عبد العاطي مثلا .. »

وضرب مصطفى على الطاولة وقال شيئا لا شك انه شتيمة ، فقلت اهدىء خاطره : « لا تزعل .. ذات يوم سأحضر عبدالعاطي الى هنا .. لا ، لن يوزع الاعاشة معنا ، لا . الاولياء لا يوزعون اعاشة ، يوزعون وعودا ، نحن فقط نوزع اعاشة ! »

وعاد هو نفسه يرعد غاضبا . كان يحمل قلما عريض الرأس يستخدمه للشطب ، فكتب على ورقة كبيرة : « اخرس » .

وضعت كفي مفروشة فوق رأسي وقلت له : « حاضر يا سيد مصطفى ، سأخرس . انا اعرف ان الولي عبد العاطي قريبك . حماك . اليس هو والد زينة ؟ »

مزق الورقة حانقا ، واخذ باقي الموظفين يبتسمون وينظرون الى دفاترهم وكأنهم لم